قصة قصيرة

جدّنا الذي في القبو

سـمـيـر طاهـر*

تعوّدْنا أن نَحْبس جدي في القبو قبل أن يَدْخل أيٌّ كان بيتَنا. لا أَذْكر متى بدأنا نفعل ذلك، لكنّي عرفتُه مذ بدأتُ أعرف. أعرف كذلك أنّ هذا الحل كان بالنسبة إلى جميع الأطراف شرًا لا بدّ منه. ولذلك كان بالنسبة إليّ شيئًا روتينيًا حين طَلَبَ منّي والدي أن أقود أباه إلى القبو لأنّ ضيوفنا في الطريق إلينا. وكان ذلك شيئًا روتينيًا بالنسبة إلى جدي أيضًا: فعندما وجدتُه عند سور البيت يمارس هوايته بسرقة الثمار من شجرة جيراننا، رغم نهْيِنا إيّاه عن ذلك مرارًا، وأعلمتُه بأنّ عليّ أصطحابَه إلى القبو، رَفَعَ حاجبيْه كما لو كنتُ ذكّرتُهُ بموعدِ أخذِ دواء، وقال:

ـ نعم ، بالتأكيد!

وبعد ذلك بقليل كنا نهبط إلى ذلك المكان العجيب، ولا عجيب فيه سوى تأثيره فيَّ كلّما هبطتُ إليه وكأنّها المرة الأولى. إنّه العتيق الجديد إلى الأبد. وإلاّ فما هو غيرُ ممرّ متعرج تنفتح على جانبيْه بين كلّ عدة أمتار غرفٌ مختلفةٌ ومتشابهة معًا: بعضُها بأبواب موصدة بأقفال ضخمة تراكَمَ عليها الصدأُ؛ وبعضُها بأبواب بلا أقفال؛ فيما البعضُ الثالث بلا أبواب بحيث يتمكّن المرء من أن يشاهد أجزاء من محتوياتها البالغة القِدَم ولكن المحتفظة بعافيتها الأولى.

قطعنا الممرّ الفقير الضوء، والإحساسُ عينُه يلتفّ حولي كأذرع أخطبوط. إحساس بألفة ودفء غريبيْن لا أعرف لهما تفسيرًا. أمان وطمأنينة. مَهْد ولحْد. وعند أقصى الممر مَقْبَعُ جدي: حجيْرة جهّزها والدي لتكون كذلك. فتحتُ الباب، فدلف جدي الحجيْرة وأشعل النور. لاحظتُ تململاً فيه هذه المرة، حتى إنّه لم يجلس على سريره كعادته.

ـ أثمّة خطبٌ يا جدي؟

سألته، فردّ بـ «لا» سريعةٍ وهو يجلس على السرير. كان يفكّر بأمرٍ ما؛ حدستُ ذلك وأنا أرى بصرَه يَجْمد على يدي التي كانت تُمْسك بالمفتاح. لم أعتدْ ذلك منه؛ غير أنّي لم أشأ البقاءَ هنا أكثر على أية حال، فاستدرتُ إلى الباب. وعندها خاطبني قائلاً:

ـ لا أدري إنْ كنتُ حكيتُ لك حكايةَ المرأة التي وَلَدتْ طائرًا برأسين ما يزال موجودًا في الجوار وأشاهده على شجرة الجيران بعض الأحيان!

ـ كلا، لم تَحْكِها لي يا جدي.

أجبتُه وأنا مأخوذ؛ فلقد اخترقتْ كلماتُه سمعي محْدثةً فضولاً عديمَ الرحمة. يعرف جدي غرامي بحكاياته التي تأخذني بعيدًا عن نفسي إلى دُنًى يكون فيها المرءُ أيَّ شيء ويفعل أيَّ شيء. لكنّ المشكلة الآن أنّ أبي بانتظار عودتي، إذ لدينا الكثيرُ من التحضيرات ينبغي القيامُ بها. لذا وجدتُني أضيف وأنا أهمّ بإغلاق الباب:

ـ يبدو أنها حكاية طويلة، سأستمع اليها بالتأكيد فيما بعد.

ـ مَنْ قال إنّها حكاية طويلة؟

ـ لكنْ عليّ أن أعود لكي ...

ـ لا أَضْمن أني لن أنساها فيما بعد. المُسِنّون يَنْسَوْن، كما تَعْلم. إلاّ أنّي في هذه الدقيقة أتذكّر جيدًا الحكايةَ كلَّها.

ـ لكنّ والدي ...

ـ الحكاية تستغرق بضعَ دقائق فقط. لك أن تَسْتمع إلى مطلعها فقط ؛ فإنْ لم يعجبْكَ فاذهبْ في شأنك.

أنّى للمرء أن يحظى بعرض أفضل؟! ووجدتُني أجلس قرب جدي وكلّي آذان.

❖ ❖ ❖

* ـ كاتب عراقي مقيم في السويد.

حين دلفتُ عائدًا من القبو، وكانت صالةُ بيتنا قد اكتظّت بالضيوف، تلقّتني نظراتُ والدي الغاضبة، فتجنّبتُه مارقًا إلى المطبخ. لكنّه تَبِعني إلى هناك ليُسْمعني هذه الكلمات:

ـ أنت تدري كم نحن بحاجة إليك هنا. ومع ذلك تأخّرتَ.

وأضاف وهو يمدّ يدَه إليّ:

ـ هاتِ المفتاح.

مفتاح القبو يظل عادةً عند أبي، وعلينا إعادتُه إليه في كل مرة بعد إنهائنا واجبًا ما في القبو. لكنّي الآن لا أجد المفتاحَ في جيبي. فتّشتُ بقيةَ الجيوب، لكنْ لا أثر للمفتاح. لم أفهم، غير أنّ أبي يبدو أنّه فهم. كان يهزّ رأسه كأنّه يؤكّد ظنونَه، ثم سألني بشكّ جديّ:

ـ كيف وأين تركتَ جدَّك؟

وجدتني أقول ذاهلاً:

ـ لقد.. حكى.. لي.. حكاية!

وفي اللحظة عينها، وَصَلَنا من الصالة صوتُه بنبرته الفاضحة.

ـ إنّه جدي!

قلتُ، ومازلت لا أفهم. كنتُ فاتحًا فاهي بذهول وأنا أنظر إلى والدي، الذي ما لبث أن هرع إلى الصالة. كان عليّ أن أتبعه، لكي أفهم.

في الصالة كان جدي يرحّب بالضيوف على طريقته، فيما كان هؤلاء يحاولون تجنُّبَه. وقف والدي جانبًا يتأمّل الوضع. كان في موقف لا يُحْسد عليه. وحين رآه جدي خاطبه هاتفًا:

ـ آها! أنظروا مَنْ أرى. ولدي العزيز، لَكَمْ أنا فخور به!

وأضاف بنبرة متحذلقة:

ـ ما كان ألطفَ زياراته لي في منتجعي السفلي! ها ها ها!

جامله الضيوفُ بابتسامات باهتة. وتظاهَرَ والدي بالضحك وهو يتجه صوب جدي، الذي صار يبتعد خطوةً كلما اقترب والدي خطوة، فكفّ والدي عن المطاردة، تاركًا جدي يتنقل بين حلقات الضيوف: فكان ينضمّ إلى حلقة منها ليقول عبارةً تجعل الآخرين يغرون أفواهَهم مجمِّدين أنظارَهم عليه، فيتركهم إلى حلقة أخرى ليفعل الشيءَ ذاتَه، وهكذا. كنتُ متوترًا ومتوقّعًا الأسوأ. أما أبي فكان يزداد حنقًا وحيرةً. وجدتُه في الشرفة يدخّن وقد بدا عليه الهمُّ، مرسلاً بصرَه إلى الخارج، ووالدتي إلى جانبه تحاول تهدئتَه. خاطبتُه بالقول:

ـ أنا آسف يا أبي. لقد كانت غلطتي. يبدو أنّه غافلني أثناء رَوْيِهِ حكايةً، فسَرَقَ المفتاح.

قالت والدتي بتأنيب:

ـ لا تتكلمْ عن جدك هكذا يا ولد!

هزّ والدي رأسه دون أن يلتفت إليّ. وبعد قليل قال:

ـ حاول الآن أن تقترح شيئًا في هذا الموقف. كيف تُمْكننا إعادةُ جدك إلى القبو دون أن نثير ريبةَ الضيوف؟

هذا ما كنتُ أفكّر فيه أنا أيضًا، وأنا أعود إلى الصالة. وقفتُ جانبًا أرْقب تصرُّفات جدي الغريبة، التي بسببها ابتدعْنا فكرةَ حبسه الموقّت في القبو. قميصُه مفتوحُ الصدر، يُطِلّ منه نزقًا شعرٌ أبيضُ كثيف. جدي يتصوّر أنّه شابٌّ مدى الحياة. وها هو يجلس الآن إلى

جوار سيدة هَمَسَ في أذنها شيئًا جعلها تغْرق في الضحك؛ ثم عاد فهَمَسَ في أذنها مرةً ثانيةً فماتت ضحكتُها على الفور، وفَغَرتْ فَمَها مصدومةً، ثم أغلقتْ عينيْها محمرّةَ الوجه. لم أفهم. كنتُ قانطًا.

❖ ❖ ❖

ـ هل أنتَ على ما يرام؟

سألني صوتٌ رقيقٌ بنبرة متعاطفة. رفعتُ رأسي إلى مصدره: إنّها الفتاة الأليفة، البنّية العينين، ابنةُ أحد أصدقاء والدي، وكنتُ أشعر بالارتياح للتحدث معها منذ أن التقيتُها أولَ مرة في دارهم في حفلةٍ صحبتُ فيها والدي. تأملتُ وجهها الذي كان مفعمًا بالمشاركة الوجدانية. كاد هذا أن يَغْلبني، غير أنّي لم أُردْ كَشْفَ السرّ. أجبتُها:

ـ نعم، أنا بخير. فقط متعب قليلاً.

كَفَفْتُ عن مراقبة جدي وحاولتُ أن أتمالك نفسي. رحتُ أنظر اليها مباشرةً، وأحسستُ أنّي أدفع بمرآها المُشْرقِ همّي. قلتُ لها:

ـ يسرُّني حضورُك الأمسية. إنّها مشوّقة، ألا ترين ذلك؟

ابتسمتْ، وقالت وهي تَنْظر إليّ مباشرةً أيضًا:

ـ أجل، إنّها مشوّقة.

وفجأةً بدا أنّنا تعرّضنا لهجوم مباغت. صوتٌ وقح، بنبرةٍ إباحيةٍ مصحوبةٍ بصوتِ تنفّس عالٍ ، يقول:

ـ آها! ثمة إغواءٌ يجري هنا! أنا أُحبّ ذلك.

كان هذا جدي. لقد انتصب أمامنا بغتةً. صار من القرب بحيث يكاد يلتصق بنا. نظرتُه وطريقتُه في الابتسام كانتا فاسقتيْن. أَسدلت الفتاةُ بصرها، وحين رفعَتْه ثانيةً وجدَتْ جدي ما يزال يَنْظر إليها بالطريقة نفسها، فولّت هاربةً إلى المطبخ. صوّبتُ إلى جدي نظرةَ احتجاج، فقال بنبرة فظيعة:

ـ تريد أن تضاجعها، أليس كذلك ؟

ـ جدي! هذا لا يجوز. لا.. لا يجوز أن تقول.. أنا.. أنا...

كانت شفتاي قد انخرطتا، بمعزل عن سيطرتي، في ارتجاف بلا انقطاع. وجدتْني والدتي على هذه الحال حين حَضَرَتْ على عجلٍ قادمةً من المطبخ متسائلةً بقلق:

ـ ما بها البنت؟ مَنْ أغضبها؟

وأضافت بعد أن لاحظتْ حالتي:

ـ ما الذي يجري؟

ثم وجّهَتْ إلى جدي نظرةَ اتهام وخاطبتْه قائلةً:

ـ مِنْ فضلك يا عم، عليك أن تعود فورًا إلى...

فصاحَ جدي ملوّحًا بيده إلى أعلى:

ـ لا، لن أنزل إلى القبو الليلة، مفهوم؟!

التفت عدد من الضيوف إلينا. لاحظتْ والدتي ذلك على الفور، ورأيتُ وجهَها يحمرّ ويتشنّج، الأمرُ الذي جعل أساريرَ جدي تنبسط بابتسامةِ زهوٍ. تصنّعَتْ والدتي الابتسامَ بطريقةٍ أثارت شفقتي، وقالت وهي تربّت على كتف جدي:

ـ عمّ تتحدث؟ لم أفهم ما تعني. لكنّ الجو مسلٍّ هنا، أليس كذلك؟ ها ها ها!

وظلت تختلس النظر إلى الحضور حتى اطمأنتْ إلى أنّهم كفّوا عن التطلع إلينا. في هذه الأثناء عاد جدي يقول لها بطريقة تعليمية:

ـ كنتُ فقط أُوضح لحفيدي أنّ تصرفاته ليست معيبة كما يظنّ، وليس عليه أن يَخْجل منها. فمن حقه الطبيعي أن يحبّ؛ بمعنى أنّ من حقّه أن يمارس رغبته في التناسل، خصوصًا أنّه لا يشكو ـ على حدّ علمي ـ من علّةٍ في عضوه.

انفتحتْ عينا والدتي عن آخرهما مرةً واحدة، وراحت تدير وجهَها بسرعة بين جدي وبيني، كأنّها كانت تريد التأكد من أنّني لم أسمَع شيئًا. كان وجهها عبارةً عن مأزق. ثم قالت بشكل آلي:

ـ الحُبّ، تعني؟

ـ ما الحب إلاّ الرغبة في التناسل لحفظ النوع!

في هذه الأثناء كانت شفتايَ قد كفّتا عن الارتجاف الغبي، وأردتُ أن أخفف الضغط عن والدتي، فأجهدتُ نفسي لأركّز قليلاً، وقلتُ مخاطبًا جدي:

ـ لعلّ الحب يا جدي يعني أشياء أخرى... الإحساس بالجمال مثلاً.

ـ الإحساس بالجمال هو الشبق، بكلمة أخرى.

ـ والحنان؟

ـ مَصّ الحلمة، تعني؟

عندها أفلتتْ والدتي برعب:

ـ يا إلهي!

وبدت كأنّها توشك أن يُغمى عليها. غير أنّ حضور والدي أنقذها، فسارعتْ بالاختفاء.

وقف والدي يَنْظر في وجه أبيه بمزيج من العتب والقسوة. غير أنّ الأخير واصل كلامه دون أن يعبأ بتبدُّل الأشخاص:

ـ... والدليل المنطقي على صحة هذا هو أنّنا لو قَلَبْنا هذه المعادلات فسنحصل على نتائج متطابقة. فالشبق ما هو سوى إحساس بالجمال، كما أنّ عملية مَصّ الصدر تعَرِّف الحنانَ التعريفَ الكامل الذي تَعْجز عنه كلُّ المحاولات الأدبية والفلسفية.

وسَكَت. ثم انتبه إلى أنّه كان محطّ نظرة طويلة ثابتة من والدي. مرّت لحظات أخرى وَعْينا كلٌّ منهما مثبتتان على عينَي الآخر. كنتُ أتوقّع حدوثَ أمر رهيب. ثم خاطب والدي أباه بصوت خفيض قائلاً :

ـ لماذا؟

مرت لحظات متوترة أخرى قبل أن يضيف بألم:

ـ أنا لم أسئ إليك يا أبتِ ، فلماذا تفعل بي هذا؟

ردّ جدي بمزاج أريحي:

ـ كلُّ ما في الأمر أنّني شعرتُ بالسأم في القبو، ففكرتُ في أن أخرج الليلة.

وخطا لمغادرة حلقتنا. لكنّه استدار ثانيةً ليَهْمس في أذن والدي:

ـ إجازة لليلة واحدة فقط. لا تكن بخيلاً يا ولد!

❖ ❖ ❖

لا أدري كيف جَرَت الأمورُ مع الصديقة. لا بدّ أنّها نالت من الإحراج نصيبًا. بل إنّني لم أعثر لها على أثر حين فتّشتُ عنها في الصالة. تطلعتُ عبر النافذة إلى الحديقة حيث تجمّعَ الأصحابُ من أبناءِ ضيوفنا وبناتهم، فلمحتُها بينهم. خرجتُ إلى الحديقة وأنا أتساءل إنْ كان الأصحاب قد لحظوا شيئًا من أمر جدي. رأتني الفتاة مقبلاً ناحيتها، ولم أتمكّن من تحديدِ ما إذا كان ذلك سَرّها أَمْ أزعجها؛ فوجهها كان محايدًا. قلت لها:

ـ أعتذر عمّا بَدَرَ من جدي.

وكأنّها كانت تنتظر مني هذه الإشارة، فأَسفرتْ أمارات الضيق على وجهها وهي تقول:

ـ أعذرْني أنتَ أيضًا عمّا سأقول. إنّ جدك فظيع لا بسبب ما قال فقط وإنما.. بسبب كلّ شيء فيه! أتدري لماذا جئنا إلى الحديقة رغم الهواء البارد؟ ببساطة، لأنّنا خِفْنا من جدك. الأصحاب جميعًا هنا يَصِفُونه بالمخيف. إنّ وجهه بشع إلى حدٍّ لا يُحتمل. ثم تعابيره... نظراته الوقحة...

كان الباقون قد سمعوا حديثَنا، وكان واضحًا أنّهم مشتركون في الهمّ ذاته. تطوّع أحدُهم بالقول:

ـ لقد سَرَق منّي قطعةَ النقود التي حصلتُ عليها من والدي. وفوق ذلك نلتُ توبيخَ والدي حين ذكرتُ له ذلك لأنّه لم يصدِّقْني.

وقال آخر:

ـ وأنا لم يكتفِ جدُّك بخطف فطيرة اللحم من يدي، وإنما دفعني بعدوانية. وما تزال كتفي تؤلمني من جرّاء ذلك.

كل كلمة منهم كانت تزيدني حرجًا. أطرقتُ وأنا أتلقّى المزيد من الأوصاف عن جدي: أناني. جشع. عدواني. همجي. فاسق...

ومن دون أن أدري وجدتُني أقول:

ـ كنّا خبّأناه عن الآخرين، لكنّه أَفْلَتَ وظَهَر فجأةً!

سألتني الفتاة:

ـ خبأتموه؟ ماذا تقصد؟

فانتبهتُ، وسارعت إلى القول:

ـ لا أقصد شيئًا معيّنًا، إنّما قد يبدو الأمر وكأنّه كذلك!

وحين وجدتُني أزداد تخبُّطًا استأذنتُ وابتعدتُ.

❖ ❖ ❖

أَرْقب جدي وفي ذهني تصميمٌ على أن أقصيه عن هذه الأمسية بأيّ ثمن. كان يجلس وسط حلقة من الرجال والنساء يصبّون عليه احتجاجَهم على كل ما يقول تقريبًا، فيما يتّخذ هو جلسةَ العارف المتعالي والمتهكم. أسمعه يقول:

ـ أية محرّمات هذه التي تتكلمون عنها؟ المحرّمات يا أصدقائي مجردُ أكاذيب دفاعية نَحْفظ بها ممتلكاتنا الشخصيةَ والعائلية. أكاذيب نحن الذين ابتكرناها، وبمرور الزمن صدّقْناها. إنها عزيزة علينا كثيرًا، كيف لا وهي الخزينة التي تحوي كلّ ما نشتهيه حقًا، كلّ شهواتنا الحقيقية؟

وعلى الفور اختلطتِ الاحتجاجاتُ من المحيطين به:

ـ فظيع!

- ما هذا الهراء؟!

- كيف تجرؤ؟!

نهض جدي وهو يقول:

- آه، يبدو أنكم كسالى الليلةَ يا أصدقائي، لا رغبة لكم في تنشيط أدمغتكم قليلاً.

واتجه صوب النافذة مخلِّفًا وراءه زوبعةً من الاحتجاجات. بل إنّ أحدهم قام فَتَبِعَه وهو يقول بأريحية:

- أنا لست كسلانًا، وسأناقشك!

اللعنة، إنّه والد تلك الفتاة! بدأ قلبي يدقّ بعنف. سيُفْسد جدي الأمرَ مرةً أخرى. لقد أردتُ فعل شيء ما لغسل الانطباع السيّء في ذهن الفتاة عن بيتنا، وها هو جدي ينقضّ على جهودي ويحطّم لي كلّ أمل. ووجدتُني أقف على بعد خطوات خلفهما وأختلس السمع. كان جدي يقول:

- رجاءً لا تحدثني الآن عن قيم الأسرة. إنّ الأسرة هي تجسيدٌ لوهم تخليد الذات، لا أكثر.

فيردّ صديق والدي بتهذيب:

- أنا أقدّر مفهومك هذا، وشخصيًا أحاول مرارًا مراجعةَ مفاهيمنا المتداولة. ولكنْ في هذه النقطة، لو اتخذتُ من نفسي مثالاً، فصدّقني أنّني، في أعماقي، أحبُّ أطفالي حقيقةً، ومستعدٌّ للتضحية من أجلهم بكلّ ما أملك، بل بحياتي نفسها. فكيف يُمْكن أن أعتبر شعوري هذا وهمًا؟

عندها سمعتُ جدي يجيبه:

- ما الفائدة من أن أجيبك عن هذا؟ أعرف أنّك لن تصدّقني؛ فالمرء لا يصدِّق ما لا يفهمه!

وهنا مرّ فاصلٌ من الصمت، قطعه حضورُ والدي ليَسْحبَ صديقَه ويعودَ به إلى بقية الضيوف، فيما واصل جدّي النظرَ عبر النافذة المطلّة على الحديقة، متفرّجًا على الصِّبْية اللاهين، أولئك الذين حُرِمتُ اللهوَ معهم الليلةَ بسبب مغامرة جدي. فكرتُ في أنّ هذه اللحظة قد تكون فرصتي المنتظرة للقيام بمحاولةٍ ما. اقتربتُ منه، فلم يشعر بي لأنّه كان مركّزًا بصرَه على الصِّبْية وهم يؤدّون لعبةً يقف فيها الصبيان صفًا والصبايا في صفّ مقابل. سمعتُ جدي يردّد:

- مساعٍ حثيثةٌ من أجل الجنس.

أحسَّ باقترابي، فالتفت إليّ، ثم عاد إلى شأنه. خاطبتُه قائلاً:

- يبدو يا جدي أنك مستمتع بالأمسية. إنّها حقًا ممتعة.

لم يجب، فواصلتُ:

- ... حتى إنّك ما تزال جالسًا معنا إلى الآن، مع أنّك في العادة تَشْعر بالتعب في مثل هذه الساعة وتَذْهب للاستلقاء في غرفتك.

بَدَتْ منه نظرةٌ جانبيةٌ قصيرة، مع ابتسامة ساخرة متحذلقة، ثم عاد يبحلق عبر النافذة، التي أَمْكنني أن أرى من خلالها صديقتي تقف بين الصفين وتؤدي حركات راقصة أو رياضية. وتابعتُ:

- هل تشعر بالتعب الآن؟ هل تودّ الذهابَ للاستلقاء في غرفتك؟ قد أَصْحبكَ إلى هناك لتحكي لي حكاية.

- ليس الآن. لا أريد أن يَفُوتني هذا المشهدُ المثير. ساقاها البضّتان، المتلألئتان، المتلاعبتان، المشاكستان.

أحسستُ أنّ سيرورةً ما قد انقطعتْ فجأةً، وأنّ ضجيج الوجود قد اختفى. ما سمعتُه لم يكن وهمًا. لقد كانت نظرته وملامحه بالغةَ الجدية وهو يتمعن صديقتي.

ـ جدي.. إنّها صبية صغيرة.

ـ وهذا هو المثير في الأمر!

هربتُ. لكنْ إلى أين؟ سأفعل شيئًا حتى دون أن أدري ما هو. خرجتُ إلى الحديقة. الصِبْية، بمن فيهم صديقتي، لا يدرون شيئًا عن نظرات جدي إليهم. جسدي صغير لا يسعه أن يَحْجز الصبايا عن بصر جدي. إنّني عاجز عن حماية صديقتي. جلستُ على العشب، على بعد أمتار من النافذة، مثبتًا عينيّ في عينيْ جدي. صممتُ أن أبقى هكذا حتى النهاية.

بعد فترة لا أعْلمها رأيتُ والدي يُطلّ وراء جدي، يراني، ويُنزل أستارَ النافذة. ثم سمعتُ صوت حركة خفيفة ورائي، وحين أدرتُ رأسي رأيتُ الأصحابَ جميعًا يقفون خلفي، عيونُهم مشدودة إلى النافذة المسدلة الأستار، صامتين.

❖ ❖ ❖

يبدو أنّ صبر الضيوف نفد، فقرّروا الرحيلَ مرةً واحدة. انفتح باب البيت وخرجوا قاطعين الحديقةَ صوب الباب الخارجي، مصحوبين بهمهمة تنمّ عن عدم ارتياح. كان جدي يَحْشر نفسَه بينهم، منغمرًا في نقاش ـ بدا وكأنّه إجباري ـ مع أحد الضيوف. كان الأخير يُمْسك بذراع زوجته التي كانت تصوِّب إلى جدي نظرات متطيِّرةً، فيما واصل كلامه قائلاً:

ـ إسمعْ يا صديقي، أنا لا أريد أن أقلّل من شأن معارفك، ولكن كلّ ما عنيتُه هو أنّ علينا ألاّ نؤمن كثيرًا، والأفضل ألاّ نؤمن أبدًا، بما يسمّى الثقافة. فالثقافة ليست أكثر من غطاء سحري، ليست له ـ مثل أيّ غطاء في الدنيا ـ أية فائدة أخرى إلاّ أن يغطي. وكما تعرف..

وهنا نقل نظره إلى زوجة الضيف، ليكمل قائلاً وهو يَغْمزها بعينه :

ـ ... فإنّ الأهم دائمًا هو ما تحت الغطاء!

فَرّ الزوجان من أمامه وهما يرددان باضطراب:

ـ مع السلامة، مع السلامة.

كان الجميع يَعْدون إلى سياراتهم عدوًا ويُطْلقون على عجلٍ عبارات التوديع، فيما كان أولادُهم وبناتُهم أسرعَ منهم في الفرار وهم يرسلون لي تحيات وداع لا تخلو نبرتُها من عدم رضًى. ركضتُ صوب سيارة وقفَتْ قربها صديقتي وهي توشك على الصعود، غير أنّها حين رأتني مُقْبلاً تريثَتْ. لم تبدُ غاضبةً، لكنّها لم تبدُ كذلك راضيةً. سمعتُ والدتها من داخل السيارة تحثّها على الصعود. أردت أن أشرح لها. ثمة كلام كثير عندي، وكلُّه ضروري. همّت بالصعود إلى السيارة، فقلتُ:

ـ أريدكِ أن تصدقيني بأنّه لا يُشْبهني، أعني أنّني لا أُشْبهه.

صعدتْ وهمّت بإغلاق الباب، فأضفتُ قائلاً برجاء:

ـ إنّي لست هو..

أغلقَت البابَ وانطلقت السيارة، فيما ظلت شفتاي المرتعشتان تتلفظان بأشياء لا أفهمها مثل:

ـ إنّه حتى ليس جدي...

❖ ❖ ❖

دخلتُ البيت مرهقًا. البيت هادئ، بل يغطّ في الصمت. كنت أتوقع أن ألقى شجارًا بين والديّ من جهة وجدي من جهة أخرى، لكنّ أبي وحده كان هناك، ساكنًا على إحدى الأرائك. يبدو مرهقًا هو الآخر، ربما أكثر منّي. تجنبتُ في البدء نظراته التي توقّعتها مليئةً باللوم. غير أنّي بعد أن جلستُ على كرسي قريب رفعتُ بصري إليه، فوجدتُه ينظر إليّ بإشفاق. فحمدت الربّ.

❖ ❖ ❖

القبو ساكن كالعادة وشحيحُ الضوء. خطواتي في الممر هادئة. الألفة ذاتها تنتابني الآن. فتحتُ باب الحجيْرة بتؤدة، فبادرني صوتُه عاليًا متذمرًا:

ـ لا، هذا كثير. هذا ليس عدلاً. لقد رضيتُ بأن أُرمى هنا حين تستقبلون ضيوفًا في بيتكم المحترم، أمّا أن أرمى هنا عقابًا لي فهذه سابقة سيئة. إنّه أمر غير مقبول.

وقفتُ إزاءه. كان جالسًا على سريره بوجه محمرّ، غَضَبًا أو لكثرة ما كرع من ويسكي أثناء الحفلة. واصل قائلاً:

ـ وما الذي أعاقَبُ عليه؟ ولدي غاضب لأنّني لم أكذب. ولدي مُحْرَج لأنّني كنت مع أصدقائه صريحًا، كما أنا. مَنْ يا ترى يصدِّق ذلك؟ أيعاقبني على ذلك بدلاً من أن يَفْخر بي؟

ثم نظر إليّ بطريقة بدا لي فيها أنّه نسي أنّني صغير، وقال:

ـ إسمعْ، أريدك أن تؤمن أنْ لا خطأ في أبيك، ولا خطأ في أصدقائه بالمرة، ولا خطأ فيّ كذلك.. لا خطأ في أحد. نادرون هم مَنْ يعرفون ذلك، مع الأسف. أنا أريدك الآن أن تعرف أشياء مهمة.

لم يكن يهمّني أن أعرف أشياءه. سبب واحد لا غير هو ما دعاني للمجيء هنا. لكنّ جدي لم يقرِّر بعد أن يوقف تيّار كلامه، فقد واصل قائلاً:

ـ الإنسان يا ولدي كائن رائع. رائع بكل ما فيه. ليس فيه أقلُّ خطإ: لا حين يرتقي بحياته، ولا حين يدمّرها أثناء ذلك. ثمة حكمة وراء كلّ هذا، وهي أنّه ليس ثمة من حكمة أبدًا؛ «الحكمة» كذبة كبيرة، باتت عتيقةً ومملةً.

استلقى مسترخيًا، وبدا متطامنًا أكثر وهو يقول:

ـ عليّ أنا أيضًا أن أتذكّر دائمًا أنّهم لن يقيّض لهم أبدًا أن يفهموا هذا. عليّ أن أتقبل جهلهم، أبنائي المساكين المنافقين.

استراح شابكًا يديْه على صدره، مغمضًا عينيه، مبتسمًا برضًى. كنتُ ما أزال واقفًا صامتًا، وهكذا رآني عندما فتح عينيه ثانيةً، فانتفض قاعدًا وقال بجدية:

ـ لكنْ ما الذي تريده مني الآن يا ولد؟ قل ما عندك وانصرفْ.

عندها فقط وجدتُ في نفسي القدرة على أن أتقدّم منه وأقف عند سريره. ثم جلستُ على الأرض إزاءه، وقلتُ بصوت خفيض:

ـ لقد جئتُ لكي أسمع بقية الحكاية.

رأيتُ جبينه يقطّب وهو يحاول الفهم، وتساءلَ :

ـ أية حكاية؟

ـ حكاية المرأة التي وَلَدَتْ طائرًا برأسين.. الطائر الذي ما يزال يحوم في الجوار، حتى إنّك تراه أحيانًا...

ستوكهولم